جامعة المنصورة
كلية الآداب

مخاوف «ذات» من العولمة

دراسة تطبيقية فى علم اجتماع الأدب

دكتورة
إلهـــام غـــالى
مدرس علم الإجتماع
كلية الآداب ببنها - جامعة الزقازيق

مجلـــة كليـــة الآداب - جامعـــة المنصـــورة
العدد الثالث والعشرون - أغسطس ١٩٩٨

مخاوف «ذات» من العولمة
دراسة تطبيقية فى علم اجتماع الأدب

يحاول هذا البحث أن يتناول محور الهوية والعولمة من خلال تحليل رواية «ذات» للكاتب المصرى المعاصر صنع الله إبراهيم ،ومن خلال تطبيق بعض من الأدوات الخاصة بالجماليات السوسيولوجية أو علم اجتماع وجمال الأدب كما مدنا بها أساتذة هذا المجال أمثال د./ فتحى أبو العينين والسيد يسين و د./ سيد البحراوى وغيرهم من الأستاذة الأفاضل . وسيحاول البحث ألا يضحى بالجانب الجمالى الخاص بالرواية وإن كان يترك التحليل الفنى الخالص للنقاد الأدبيين المتخصصين فى ميدان النقد الأدبى حيث أن الجماليات السوسيولوجية تنظر إلى العمل الأدبى من منظور أنه وثيقة إجتماعية دالة . أما النقد الأدبى فيتناول العمل من زاوية الأدوات الفنية التى استعملها الكاتب فى عمله . كذلك يحاول البحث ألا ينظر فى الوقت نفسه إلى رواية «ذات » نظرة مسبقة حرصا على خصوصية العمل الأدبى وقراءته سواء كانت هذه المسبقات والمسلمات سياسية أو أيديولوجية . فالرواية عينة نستخلص من خلالها بعض الخلاصات السوسيولوجية فيما يتصل بطبيعة العلاقة الإجتماعية بين الهوية والعولمة . ويستهل البحث مسيرته أولا بتعريف علمى دقيق لمصطلح العولمة ثم يبين كيف تتمفصل العولمة والهوية فى رواية «ذات» لصنع الله إبراهيم (ط١ ، مارس ١٩٩٢) .

أما بالنسبة للتناول النقدى الأدبى العام للرواية فتميل محاكاة دراسة د./ لطيفة الزيات حول التغريب ، القناع ، المرارة .. وكذلك دراسة

د./ سيد البحراوى «قاتلة الذات وثيقة الإدانة » فى العدد يونيو ١٩٩٢ من مجلة «أدب ونقد » .. وقد أخذنا من هذه الدراسات النقدية وغيرها وإن نظرنا إلى الرواية من منظور سوسيولوجى . والمحور الأساسى فى هذا المنظور هو بيان اختلال التوازن الإجتماعى والنفسى المصرى فى ضوء انفتاح مصر على سوق واقتصاديات العالم . فهذه هى الخلاصة السوسيولوجية الرئيسية التى يستخلصها البحث من خلال الإستناد إلى خصوصية «ذات» .

تشهد الرأسمالية فى مرحلتها بعد الصناعية الجديدة ظاهرة التدويل أو تخطى الإقتصاديات القاعدة للنمو الجديد . ولم يعد من الممكن تطوير النمو والاستهلاك قد أصبحت دورات عالمية متخطية لكل اقطار العالم : تدويل رأس المال ، تدويل العمل ، تدويل الأزمة .

هى ظاهرة ليست جديدة تمام الجدة . فقد كانت الرأسمالية قد سعت منذ بدايتها إلى نقل أسلوبها خارج حدودها وإلى مصادر الخامات والموارد والأسواق و الإستثمارات ، وإلى ادماج العالم كله فى سوق عالمية واحدة . ففى القرن السادس عشر والسابع عشر ساهم توسع التجارة فى اسقاط نمط الإنتاج القديم وولادة نمط الانتاج الرأسمالى الجديد . ومن هنا كانت السوق الرأسمالية العالمية لحظة فى عملية طويلة المدى هى التحول التدريجى للرأسمالية إلى نظام عالمى . وجعلت الرأسمالية الصناعية اسلوبها يعتمد فى اشباع حاجاتها أسواق العالم كله . فحطمت العزلة السابقة للبلدان الرأسمالية. وتتجه الرأسمالية المعاصرة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية نحو التدويل . «وهى تتخطى إمكانيات البلد الواحد ، بحيث اصبحت الظاهرة الغالبة هى اضطراد العمليات التى تؤدى فى النهاية إلى

تدويل الحياة الإقتصادية داخل كل بلد على حدة . فالإنتاج والتسويق لم يعد ايهما متيسر إلا على أساس زوال . والبحوث العلمية اصبحت نجرى فى مراكز دوليه ورأس المال اصبح دوليا ، أى أن العمليات الاساسيه للإنتاج واعادة الانتاج وهى التراكم وتنظيم العمل والتسويق والتوزيع صارت تتم على صعيد دولى (١) .

وتمثل «ذات» ١٩٩٢ ، واحده من أهم الروايات التى الفها الكاتب الكبير صنع الله ابراهيم ، وهى أيضا واحده من أهم الروايات التى تناولت بشكل بارز إختلال الواقع الاجتماعى المصرى فى اثر انفتاح المجتمع على النظام الاقتصادى العالمى ، منذ النصف الاول من عقد السبعنيات الى الآن . وهناك فى رواية صنع الله ابراهيم درجتان او نوعان متلازمان من الذات . ذات الأنا أو الفرد . ومثال ذلك نمو فتاه مصريه عاديه تعيش مراحل الانتقال الرئاسى الثلاث من عبد الناصر إلى السادات ومبارك . وهناك أيضا هويه الجماعه أو الهوية الاجتماعيه . ومثال ذلك نموها فى البيئة الاجتماعية : العلاقه الزواجيه (مع عبد المجيد ثم البنتين والولد) وعلاقات الجوار (وخاصه مع الشنقيطى وسميحه) وعلاقات العمل (وخاصه مع همت ومنير) .

ومشكلة الهويه التى تثيرها رواية «ذات» هو كيفيه تفسيرها للعلاقة بين الانا والمجتمع . فهناك فى الرواية دلائل وقرائن واضحه تؤكد على التحول السريع فى البنيه الاقتصادية والاجتماعيه والسياسية فى المجتمع المصرى فى ربع القرن الاخير . وهذا التحول السريع لايعنى أن مصر تحولت فجاه من الاشتراكيه الناصريه الى الرأسماليه الساداتيه، انما كان الحلم الرأسمالى الذى بدى قريب المنال فى ظل اشتراكيه عبد الناصر قد اصبح

امرا محالا فى عهد رأسماليه السادات ، والكاتب يريد ان يقول لنا ان عهد عبد الناصر لم يكن اشتراكيا ، وان عهد السادات لم يكن رأسماليا ، بل يريد ان يقول أن التحول السريع الذى طرأ على المجتمع المصرى منذ عقد الستينات إلى آخر القرن العشرين يمتاز عن غيره من التحولات ميزة دقيقة هى أن الثروات الضخمة بعد ما كانت تتكون بين بيروقراطى الدولة أصبحت تتكون بين يوم وليلة بين يد السماسرة والمقاولين الأغنياء الجدد . إلا أن الطبقة المتوسطة من أمثال عبد المجيد وزوجته أصبحت بعيدة عن ذلك التكوين الضخم للثروات .

رواية «ذات » هى تشخيص لحال «ذات» المريضة أو على الأقل غير الطبيعية التى انتابتها وهى تسير على خط الهدم والبناء فعبارة «مسيرة الهدم والبناء» تتكرر فى الرواية إلى الحد التى يبدو فيه أنها اللحن الرئيسى فى المعزوفة الموسيقية أو بيت شعرى فى قصيدة .

إلا أن هذا التحول الإجتماعى والإقتصادى والسياسى ليس تاماً . لأنه يوازيه استمرار التخلف الثقافى . فقد امسكوا «بذات» بطلة أو لابطلة الرواية وفتحوا لها فخذيها عنوة . ثم اجتثوا ذلك النتوء الصغير الذى سبب إزعاجاً شديداً للمصرين من قديم الزمان . « وإن كان من الأمانة أن نسجل أن الإجتثاث ، لحسن الحظ أو لسوئه (حسبما تكون وجهة النظر) ، لم يكن تاماً . فالأم التى جردت مبكراً من العضو المزعج ، كانت – على عكس ما يتوقع المرء – حريصة على ألا تتمتع ابنتها بفرصة التسلية (قبل الزواج) ثم التفويض (بعده) التى حرمت هى منها . أما الأب فكان، عكس ما يتوقع المرء أيضاً ، راغباً فى اعفاء بنته من العملية التقليدية ، متصوراً (إن صواباً أو خطأ) أنها المسئولة عما آل إليه نتوئه الخاص .

ولما كان توازن القوى النتوئى فى قمته ، كان لأن من فخذيها وسط. هكذا سمح بالإبقاء على جزء من النتوء الجليل مما أتى بنتيجة عكسية، فبدلاً من أن يصبح تعويضاً عن الجزء الضائع ، صار تذكرة دائمة به ... (٢) .

ونتيجة هذا الإنفصام لدا الإنشطار بين التحويل الإقتصادى وبين الثبات الثقافى يوثق الروائى ويدقق فى مجتمع يعيش متوسلا بأدوات الحداثة الغربية ويفكر متوسلا بأدوات التقليد الضيق .

كذلك يلفت الكاتب القارئ إلى أزمة انتاج المعنى ، فإن كانت القيم الروحية والمتوارثة لاتزال تحكم ذهنية التحريم فإن الشعب المصرى قد أنتج قاموسا جديدا تماما تحلو فيه المفردات والكلمات والتراكيب من المعنى : در يسنج ، التليباثي ، المسرمكة ، السرمكة ، الانتركوم ، الكمبشة (نسبة إلى المرحاض الحديث) ، الكندشة (نسبة إلى جهاز التكييف) ، كذلك من ملامح أزمة المعنى اكتساح ظاهرة اليأس والإحباط . فذات شأنها شأن بقية الشخصيات مُحبطة على كل المستويات الجنسية والزوجية وغيرها من المستويات النفسية والإجتماعية ، وكان اليأس قد استهل رحلته فى الأيام الحزينة الأول التى تبين فيها أن الجيش المصرى لا يتقدم فى سيناء شرقا وشمالا ، وإنما جنوبا وغربا ، الأنسحاب الدرامى الذى قام به جمال عبد الناصر ومن بعده فريد الأطرش وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ ، أى أن المصدر الأصلى للإحباط المصرى فى ربع القرن الأخير هو هزيمة ١٩٦٧ . هذا وإن اليأس لم يمتلك «ذات» تماما . فما إن انتهى من زرف الدموع المناسبة ، حتى تحاول من جديد ... فإذا كان اليأس تكتيكا فالأمل هو الهدف الأستراتيجى . وهو الأمل الذى يسكنه شبح عبد الناصر وشرائط